الباب الثاني

المماليك

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

يحرص المؤرخون المسلمون على التمييز في تاريخ المماليك بين طائفتين أو دولتين:

الدولة الأولى هي دولة المماليك البحرية التي بدأت باعتلاء السلطانة شجرة الدر عرش مصر بعد اغتيال توارن شاه في مارس سنة ١٢٥٠م، (٦٤٨هـ). وانتهت سنة ١٣٨٢م بخلع السلطان حاجي حفيد الناصر محمد بن قلاوون.

أما الدولة الثانية فهي دولة المماليك البرجية أو الجراكسة والتي كانت بدايتها بوثوب برقوق إلى منصب الأتابكية وإزاحته للسلطان حاجي بن شعبان عن السلطة سنة ١٣٨٢م، إلى أن انتهت بمقتل السلطان المملوكي طومان باي وشنقه على باب زويلة على يد السلطان سليم الأول العثماني سنة ١٥١٧ ميلادية (٩٢٣هـ).

obeikandl.com

الفصل الأول

من هم المماليك البحرية ؟

كان المماليك طبقة عسكرية ممتازة لها أسلوبها الخاص في الحياة والتربية، لقد انتسب المماليك إلى سادتهم الذين اشتروهم من التجار أو حصلوا عليهم بطريقة أو أخرى، فكان المملوك الأشرفي منسوباً إلى أستاذه الأشرف، والمملوك الظاهري منسوباً إلى أستاذه الظاهر.

وقد ينسب المملوك إلى التاجر الذي جلبه وباعه، أو إلى قيمته النقدية التي دفعت في شرائه مثل قلاوون الألفي، الذي اشتري بألف دينار على ما يذكر بيبرس الدوادار في كتابه «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة»، الجزء التاسع.

وكانت عناية السلاطين والأمراء بالمماليك عظيمة؛ فقد حرصوا على تعليمهم أحكام الشريعة الإسلامية وآدابها، فضلاً عن الخط والقرآن على يد الفقهاء، فإذا شب المملوك عن الطوق اهتم صاحبه بتلقينه فنون الحرب واستخدام النشاب وركوب الخيل وأنواع الفروسية، فإذا ما أتم كل ذلك صار في زمرة الأمراء(*).

(*) القلقشندي: صبح الأعش، ج٤.

فيصير للملوك إقطاع من الأرض يعيش منه ويسمح له بامتلاك عدد من المماليك يتناسب مع درجته.

شجرة الدر:

بعد مقتل توران شاه أقسم أمراء المماليك للسلطانة شجرة الدر يمين الولاء، فقد نصبوها في ذلك المكان لأنها وعدتهم بالرضى إن هم خلّصوها من توران شاه، وأصبحت الأمور في قبضة تلك المرأة، وصدرت المراسيم باسمها، وكان توقيعها باسم (والدة الخليل)، وخطب لها على منابر مصر وضربت السكة باسمها وكان رسمها «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل»، لقد ظنت أنها إذا انتسبت إلى الخليفة العباسي المستعصم أكسبت حكمها سياجاً من الشرعية، لكن كان ذلك أمراً لم يألفه المسلمون من قبل؛ فقد كرهوا أن تتولى عليهم امرأة، وانتقد الناس سلوكها حين أطلقت سراح ملك فرنسا لويس التاسع، وحين أسرفت في توزيع الإقطاعات والمناصب على أمراء المماليك الذين نصّبوها سلطانة على مصر.

لم يكن ذلك إحساس المصريين وحدهم؛ فخارج مصر انطلقت أصوات المعارضة ضد تنصيب شجرة الدر سلطانة، فامتنع نائب السلطنة بدمشق عن الاعتراف بها، وما لبث أن قرّ قرار الرافضين على مراسلة الملك الناصر يوسف

الأيوبي ملك حلب على التدخل وإزاحة المرأة عن عرش مصر، وزينوا له أحقيته بالعرش والسلطنة إذ إنه من الأسرة الأيوبية.

لم يتردد يوسف في التحرك الفوري، وها هو في دمشق وقد فتحت له أبوابها، كما انتهز الفرصة بعض أمراء البيت الأيوبي، فاستقل الملك المغيث عمر بالكرك والشوبك، واستقل الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بالصبيبة، وبذلك تنازع الأيوبيون والمماليك مصر والشام.

غير أن الكلمة الفيصل كانت من بغداد، فقد أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى أهل مصر يعنّفهم على اختيار امرأة لتحكمهم، وقال لهم منددًا في لهجة ساخرة:

«إن كانت الرجال قد عدمت عندكم؛ فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً»(*).

لقد اتفق المماليك على أن تتنازل شجرة الدر عن السلطنة لأتابك العسكر عز الدين أيبك، وأن يتزوجها، وهكذا وبعد أن قضت شجرة الدر في منصب السلطنة ثمانين يوماً نزلت عن منصبها، ورضيت بأن تكون زوجة للسلطان الجديد في تموز ١٢٥٠م.

(*) المقريزي: السلوك، ج١.

لكن ذلك لم يمنع الانتقاد خارج مصر؛ فقد عدّ الأيوبيون ذلك التصرف تحايلاً من المماليك على بقاء الأمر في أيديهم، وزادوا من الهجوم على السلطان الجديد.

السلطان عز الدين أيبك:

حين تولى ذلك الرجل السلطنة رأى أن يواجه المعارضة بحل طريف، فلجأ إلى إشراك أمير أيوبي طفل في السلطنة. كان ذلك الأمير في السادسة من العمر، وكان يدعى الأشرف موسى، وكان هدفه أن يجتمع أمراء الأيوبيين على طاعته وأن يطيعه ملوكهم، بيد أن أبناء البيت الأيوبي لم تجز عليهم الحيلة، وزحف الناصر يوسف نحو مصر، في حين اجتمع رأي أمراء الأيوبيين على أن يتولى السلطنة الأمير المغيث عمر الأيوبي أمير الكرك.

هنا أقدم أيبك على خطوة تنم عن دهائه وثاقب فكره؛ إذ أسرع يعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد، وأنه يحكمها من قبل الخليفة العباسي.

كما سارع بهدم تحصينات دمياط حتى لا يتخذها الصليبيون قاعدة ينفذون منها إلى داخل البلاد، وأرسل الأمير أقطاي المملوكي على رأس حملة ضخمة لتأديب الأيوبيين، والتقى الفريقان قرب الصالحية بمصر وانهزم

الأيوبيون في شباط سنة ١٢٥١م، وتعقبت قوات المماليك فلول الهاربين منهم في فلسطين.

لكن الأعراب رفضوا وأنفوا أن يخضعوا لحكم المماليك، ونادوا بأنهم أحق بالملك من المماليك، فأنفذ إليهم أيبك الأمير أقطاي فناوشهم وقاتلهم وقضى عليهم قرب بلبيس سنة ١٢٥٣م.

ثم إن المماليك تعاظم نفوذهم، وتطاول أقطاي على عز الدين أيبك وتزوج بأميرة أيوبية، وطلب من أيبك السماح لها بالإقامة في قلعة الجبل. مما اضطر أيبك إلى الرضوخ والتفكير في الخلاص من أقطاي.

وما لبث مماليك أيبك أن تسللوا إلى القلعة وقتلوا أقطاي وعروسه. لكن ذلك أغاظ أتباع أقطاي وكان من بينهم بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، فأسرعوا بالفرار إلى الشام، فأسرع أيبك يصادر أموالهم وأملاكهم.

انضم الفارون إلى الناصر يوسف وحرضوه على الهجوم على مصر. وظل أيبك في الاستعداد والتأهب لدفع الخطر الخارجي ثلاث سنوات من ١٢٥٤م إلى ١٢٥٧م، وحالف بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل على أن يتزوج أيبك ابنته.

لكن أسرعت شجرة الدر بالتخلص من عز الدين أيبك لجحوده وتنكّره لما صنعت له من معروف بتنازلها عن السلطنة، وتآمرت على قتله، فقتل في الحمام سنة ١٢٥٧م، ولم تمض سوى ثلاثة أيام إلا وتعرضت لنفس المصير. وقتلت بالقباقيب.

وبموت الاثنين أصبح مُلك مصر خالياً للطامعين للوثوب عليه؛ لكن المماليك أقروا على الملك ابن أيبك وهو في الخامسة عشرة، واسمه المنصور علي، وقد ظل في السلطنة عامين، وتولى نائباً عنه سيف الدين قطز أقدم ممالك أبيه أيبك.

وعجلّت الأحداث بوضع نهاية لعهد المنصور علي، وإلى قيام قطز بأعباء السلطنة.

المظفر سيف الدين قطز:

ظهر المغول في القرن الثاني عشر الميلادي، وغدوا قوة حربية عظيمة حين استطاع زعيمهم جنكيزخان توحيد صفوفهم، وصار سيداً مطاعاً، ومطلق السلطان على قبائل المغول في آسيا؛ فاستولى على الصين سنة ١٢١٦م، وأخضع تركستان وبلاد خوارزم سنة ١٢٢٠م، وانتصف القرن الثالث عشر، فإذا بجيوش المغول تكتسح فارس، ومعظم جنوبي روسيا وأطراف أوربا الشرقية.

وفي أثناء تسلّم السلطان المنصور علي بن عز الدين أيبك حكم البلاد كانت قوة المغول منقسمة إلى فريقين:

الفريق الأول: يشمل مغول فارس بزعامة ملكهم هولاكو حفيد جنكيز خان.

والثاني: يشمل مغول الشمال أو القبيلة الذهبية في شمال بحر قزوين والبحر الأسود وحوض نهر الفولغا بزعامة ملكهم باطوخان.

وكان التنافس بين الفريقين قد أدى بهولاكو إلى توسعة مملكته فاتجه نحو العراق والشام ومصر للاستيلاء عليها وضمها إلى ملكه.

بدأ هولاكو عهده بالزحف على بغداد سنة ١٢٥٨م. حاصرت جحافل المغول بغداد إلى أن سقطت في يدها في شباط سنة ١٢٥٨م فانسابت تلك الجحافل في أحياء المدينة وطرقاتها تقتل وتدمر، وكان من ضمن قتلاها الخليفة المستعصم ذاته وأسرته، وانطلقت قوات هولاكو إلى مصر.

في ذلك الحين بلغ أمراء المماليك الفارين عزم الناصر يوسف الأيوبي مسالمة المغول ليتخذهم ذريعة للقضاء على المماليك، ولقد أرسل ابنه العزيز إلى هولاكو طالباً النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فانفضوا عنه واتجهوا إلى صاحب الكرك يشجعونه على غزو مصر.

هنا انتهز نائب السلطنة قطز الفرصة لعزل المنصور من السلطنة فقال لخاصته:

لابد من سلطان قاهر يقاتل العدو، والملك المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة.

ثم قبض على السلطان وأخيه وأمه واعتقلهم في قلعة الجبل، وسارع بملاقاة جيش صاحب الكرك وهزيمته.

ثم أعلن قطز نفسه سلطاناً على مصر في نيسان ١٢٥٩م، وأعلن أنه ما أقدم على تلك الخطوة إلا لتجتمع الكلمة على قتال المغول، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم بعد ذلك أقيموا في السلطنة من شئتم(*).

عقب سقوط بغداد زحف هولاكو على ديار بكر، وأرسل فرقة للاستيلاء على حلب في شباط ١٢٦٠م، وأدرك الناصر يوسف حرج موقفه فراسل قطز وصاحب الكرك على الوحدة للقضاء على المغول، هنا كرّ الفارون من المماليك مثل بيبرس وقلاوون، وأرسلوا إلى قطز يطلبون الانضمام إلى جيوش الإسلام للتصدي لخطر المغول.

(*) المقريزي: السلوك، ج١.

ووصل المماليك إلى مصر فرحب بهم قطز، وأعاد إليهم ما سلبه أيبك من أموال ومناصب.

أرسل هولاكو خطاب تهديد إلى قطز يطالبه بتسليم مصر للمغول ويخوفه عاقبة المقاومة ويقول له:

لن يستطيع بلد أن يحميك من غضبنا، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال(*).

استشار قطز الأمراء فيما يجب عمله، فأجمعوا على الثبات والجهاد، فقبض على رسل المغول وعلق رؤوسهم على باب زويلة.

كانت طلائع المغول قد وصلت إلى غزة والخليل وفتكت بالناس وسلبت الماشية والأغنام، فخرج إليهم قطز على عجل، وأرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس فهزم المغول، وطاردهم إلى نهر العاصي، أما هولاكو فعلم بوفاة مانكو خان المغول الأعظم ففارق جيشه عائداً إلى جوف آسيا ليشارك في اختيار خليفة الخان، وأمر كتبغا أن يقود جيش المغول.

(*) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨.

لكن المغول فوجئوا بقوات المماليك تطبق عليهم في عين جالوت بفلسطين، وأظهر جيش مصر براعة وشجاعة منقطعة النظير، وانهزم المغول وولوّا مدبرين بعد أن قتل قائدهم كتبغا في المعركة الفاصلة.

كانت عين جالوت أول هزيمة مُنِي بها المغول في تاريخهم، وبطلت أسطورتهم التي روّجوا فيها الزعم بأنهم لا يغلبون.

وبعد انقضاء المعركة عاد جيش مصر ظافراً إلى البلاد، وآثر قطز أن يدخل دمشق قبل أن يرحل إلى القاهرة.

لكن نجم خلاف بين قطز وبيبرس، لقد وعد قطز أن يولي بيبرس على حلب، وما إن انتهت الحرب حتى نكث قطز وعده، فاغتال بيبرس وأعوانه السلطان قطز في الصالحية.

الظاهر ركن الدين بيبرس:

صعد ركن الدين بيبرس البندقداري إلى قلعة الجبل وتسلّم السلطنة وبايعه المتآمرون وتسمى بالملك الظاهر، وبدأ يستميل الأهالي بإبطال المكوس والضرائب التي فرضها قطز، ومنع المماليك من التعرض للأهالي بسوء.

كان بيبرس من مواليد القوقاز، وقد أغار المغول على المنطقة واستولوا عليها، وكان بيبرس ضمن الأسرى فبيع في سوق الرقيق واشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار أحد مماليك الصالح أيوب، وسرعان ما استولى الصالح أيوب على أملاك علاء الدين وفيها بيبرس وأسكنه مع مماليكه في قلعة الروضة.

وانتقلت ملكية بيبرس إلى توران شاه إلى أن تخلص المماليك منه في الصالحية، وأعلنوا شجرة الدر سلطانة، ثم اضطر بيبرس إلى الفرار إلى الشام مع قلاوون وأصحابه من وجه أيبك.

لكن لم تهدأ الثورات ضد بيبرس، فقد أعلن صاحبه سنجر الحلبي نفسه سلطاناً على دمشق، وتلقب بالملك المجاهد فأنفذ إليه بيبرس جيشاً هزم أصحاب سنجر واضطره إلى الفرار فدخلت الشام في حوزة بيبرس، ونشط بيبرس إلى الاستيلاء على الكرك من المغيث وقتله، وبذلك خلصت مصر والشام لبيبرس وانتهى عهد الأيوبيين.

وكان التحالف بين المغول والصليبيين، فأسرع بيبرس بعقد تحالف مع مغول القبيلة الذهبية وصاهر ملكهم، بركة خان الذي أسلم.

وظلت الحرب سجالاً بين مغول فارس والمماليك إلى أن تُوفي بيبرس سنة ١٢٧٧م.

ويحسب لبيبرس في سجل الشرف أنه حين بلغه خبر اتفاق مغول فارس والروم على محاربته سنة ١٢٧٦م خرج على رأس جيوشه إلى آسيا الصغرى وأنزل بهم هزيمة ساحقة عند البستان، وقتل عدداً كثيفاً منهم، ودخل عاصمة الروم قيصرية.

كما يحسب لبيبرس أنه استولى على حصون طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام، وهي طائفة منحرفة الفكر والعقيدة.

الناصر محمد بن قلاوون:

بعد وفاة الظاهر بيبرس عام ١٢٧٧م حدثت فتنة وثورات داخلية؛ فالمماليك لم يعتادوا أن يورّثوا أبناءهم الحكم.

حاول السلطان بيبرس أن يحفظ الملك لولده السعيد بركة، وجعل الأمراء يقسمون لولده يمين الطاعة عام ١٢٦٢م، ثم عهد لولده بولاية العهد عام ١٢٦٤م، ولكي يرسخ لولده قاعدة الحكم عمد إلى تزويج ابنه بابنة الأمير قلاوون الألفي كبير أمراء مماليك الصالحية ليضمن ولاء قلاوون لابنه.

ولما مات بيبرس بايع الأمراء الملك السعيد بركة خان بن بيبرس في السنة نفسها ودُعِي له على المنابر، وكان له من العمر تسعة عشر عاماً، لكن

وأسفاه؛ فإن السعيد بركة كان على النقيض من والده المجاهد، فانصرف إلى اللهو؛ مما أحنق عليه صهره قلاوون وكبار أمراء مماليك الصالحية، فعزلوه بعد عامين وجعلوه نائباً على الكرك.

ولم يلبث أن وقع اختيارهم على الأمير سلامش، الولد الثاني لبيبرس، فنصّبوه سلطاناً وهو في السابعة من العمر، وعيّنوا موجّهاً له الأمير قلاوون الذي أصبح مشاركاً له في السلطة، وبعد حين جمع قلاوون الأمراء وشاورهم في عزل السلطان الصغير، وسرعان ما نفي سلامش إلى الكرك سنة ١٢٧٩م وتولى السلطنة قلاوون.

تعرض ملك قلاوون للعواصف، فانفض عنه أصحابه من كبار أمراء الصالحية، وأعلن الأمير سنقر الأشقر نفسه سلطاناً على الشام وتلقب بالملك الكامل، وبعد حروب طاحنة ثاب سنقر إلى رشده سنة ١٢٨٧م، فعفا عنه قلاوون ورده إلى خدمته.

ونشط قلاوون لمجاهدة الصليبيين والمغول كما اهتم بتنظيم الجيش، واتخذ جنده من الجراكسة، وجعل لهم أبراجاً في قلعة الجبل، وبذلك عرفوا بالمماليك البرجية أو الجراكسة.

وحين خرج قلاوون مجاهداً في سبيل الله ليدفع الصليبيين عن عكا سنة ١٢٩٠م وافاه الأجل المحتوم.

وسرعان ما قفز إلى السلطة ابنه خليل، لكن عصره امتلأ بالعسف وأعمال القتل والحبس والمصادرة وتصفية أعوان أبيه، مما دفع من بقي من هؤلاء الأعوان إلى التآمر عليه وقتله في رحلة صيد في كانون الأول سنة ١٢٩٣م.

لكن يذكر لخليل أنه استولى على عكا سنة ١٢٩١م، وعلى قلعة الروم عند أعالي الفرات.

اختار المتآمرون للسلطنة الأمير بيدرا نائب السلطان، ولقبّوه بالملك الأوحد، لكن ذلك أحنق الأمير كتبغا وسرعان ما انقض بقواته على بيدرا وقتله، ووقع سجال بينه وبين الأمير سنجر الشجاعي نائب السلطان بيدرا. وأخيراً اتفق الاثنان على تنصيب محمد بن قلاوون سلطاناً وهو في التاسعة من العمر ولقبوه بالناصر.

كان الغرض من تنصيب محمد سلطاناً أن يتم إقصاؤه عن الحكم بعد مدة، بيد أن هذا السلطان الذي يعد من أعظم سلاطين المماليك عمّر طويلاً وحقق من الإنجازات ومن نصرة الإسلام فخراً كبيراً اعترف له به الأعداء، وما تحمد له الله به الألسنة.

تولى الأمير كتبغا منصب نائب السلطان، أما الأمير سنجر فعين في منصب الوزير.

وحمى وطيس المنافسة والحرب بين الإثنين إلى أن قتل سنجر فأعلن كتبغا نفسه سلطاناً بعد عام واحد أي عام ١٢٩٤م، وأصبح نائبه الأمير لاجين وعزل السلطان محمد.

لكن العجيب أن الناس تطيّروا من عهد كتبغا، إذ نقص ماء النيل وشحّت الأقوات وانشرت الأوبئة والمجاعات، وبعد عامين انقض لاجين وأعوانه أواخر سنة ١٢٩٦م على كتبغا وهو عائد من الشام ليقتلوه، بيد أنه أفلح في الفرار، وتولى لاجين الحكم، وتم ترحيل الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك.

فشل لاجين في السيطرة على الموقف؛ إذ أثار استبداده بالأمور غضب الأمراء، وخاصة حين بلغهم عزم لاجين جعل ولاية العهد لمنكوتمر نائبه على السلطنة، وبعد عامين تم قتل لاجين ونائبه واستدعاء الناصر محمد من الكرك لينصّب سلطاناً من جديد سنة ١٢٩٨م.

كانت سن الناصر وقتها أربع عشرة سنة، وظل ألعوبة في يدي نائب السلطنة الأمير سلار والأمير الوزير ركن الدين بيبرس الاستادار وضيّق عليه الاثنان الأمر في الطعام والنفقة، وزاد الطين بلّة أن انتصر المغول على المماليك سنة ١٢٩٩م قرب حمص.

لكن بعد عامين رد المماليك على المغول بهزميتهم شر هزيمة جنوب دمشق في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠١م.

كابد السلطان محمد كثيراً من مكائد ومضايقات نائبه ووزيره إلى حد عزوفه عن الحكم، وفي سنة ١٣٠٨م أبدى رغبته في أن يحج إلى بيت الله الحرام، ولما كان في الطريق ووصل إلى الكرك أعلن عزمه لمرافقيه على التنازل عن السلطنة ليبقى بالكرك.

كان قرار السلطان طعنة عنيفة للنائب والوزير، وأصبح الصراع بينهما علناً؛ لكن سرعان ما تنازل سلار عن رغبته في السلطنة، فصعد بيبرس الاستادار إلى السلطة، ولم يستمر ذلك السلطان منعماً بملك البلاد، إذ حقد عليه العامة وتظاهروا ضده، بل انطلقوا إلى السلطان محمد في الكرك يحثونه على القدوم وتولي العرش، والتف حوله أمراء الشام، فقبل محمد أن يعود، وسار إلى دمشق سنة ١٣٠٩م، ومنها إلى القاهرة في كانون الأول ١٣٠٩ (جمادى الآخرة ٧٠٩هـ)، فاستقبله الأمير سلار، مرحباً بعد أن خلع بيبرس نفسه عن السلطنة.

وبدأت أعظم مرحلة للناصر محمد بن قلاوون منذ ذلك التاريخ إلى أن توفي سنة ١٣٤١م، فقد كانت سنه وقتها خمساً وعشرين سنة، وله من الخبرة ما يجعله كفؤاً للصمود في وجه المعارضين والأعداء على السواء.

وبدأ عهده بقتل بيبرس وحبس سلار ومصادرة ثروتهما العظيمة. واتسعت رقعة المملكة فكان السلطان محمد هو الذي يعيّن أشراف مكة، وأرسل إليه بنو رسول باليمن الهدايا، ودُعِيَ له على منابر طرابلس وتونس، وخطب السلطان محمد بن تغلق الهندي وده واستعانه على المغول.

وتمتعت مصر في عهده بالاستقرار والرخاء؛ فألغى الضرائب والمكوس، وشجّع العلماء وقرّبهم إليه حتى كان المؤرخ أبو الفدا من خواصه المقربين.

أنشأ السلطان محمد المباني الكثيرة من أهمها المدرسة الناصرية وجامع السلطان الناصر بحي القلعة بالقاهرة، كذلك من أروع إنجازاته حفر الخليج الناصر سنة ١٣٢٤م، وإعادة حفر خليج الإسكندرية مما أنعش التجارة.

وتوفي السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤١م وكان عمره ثمانية وخمسين عاماً.

لكن أولاد الناصر محمد وأحفاده لم يكن لهم من أثر يذكر، وتضاءل نفوذ السلاطين المماليك البحرية.

وفي النهاية أمكن لأتابك عسكر السلطان الصغير أمير حاج حفيد الناصر محمد المسمى برقوق سنة ١٣٨٢م إقصاء السلطان الصغير عن السلطة وخلعه وتولى السلطنة، وبذلك يبدأ عهد المماليك الجراكسة أو البرجية في البزوغ.

obeikandl.com

الفصل الثاني
المماليك البرجية

وتمضي الأحداث سراعاً.

وها هي دولة المماليك الثانية التي تعارف المؤرخون على تسميتها بالمماليك البرجية أو الجراكسة تظهر على مسرح التاريخ على يد برقوق أتابك عسكر حاجي بن شعبان سنة ١٣٨٢م.

والآن نختار من تلك الحقبة أهم الأحداث لنركز عليها، كما نتحدث عمن قاموا بها؛ لأن هدفنا أن نوجه الأنظار ونثير الهمم لاقتفاء أثر أولئك المصلحين والعظماء الذين أضافوا إلى تاريخ بلادهم وكتبوا بأعمالهم أروع صفحاته.

ها هو برقوق يصل إلى قمة السلطة حين تولى سلطاناً، كان برقوق من كبار أمراء المماليك، وكان يشغل منصب (أمير خور كبير) أي ناظر الاسطبلات السلطانية، كما يؤكد القلقشندي في صبح الأعشى، ج٥، والمقريزي في السلوك، ج١، وتسمى بعد أن صار سلطاناً بلقب الظاهر.

لكن الطريف أن أصدقاء برقوق (زملاءه) تآمروا عليه وسعوا إلى قتله، وحين انكشفت المؤامرة جدّ الرجل في تشتيت المتآمرين، ولم يأمن مكرهم.

أصل برقوق من بلاد الجراكسة وهو ابن أنس بن عبدالله العثماني، اشتراه وجلبه إلى مصر شخص اسمه فُخر الدين عثمان فنسب إليه برقوق وعرف بالعثماني، اشتراه من عثمان الأمير يلبغا الخاصكي وأعتقه فصار من مماليكه، ثم انتقل فصار في خدمة ولدي السلطان شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون.

لكن نائب حلب الأمير يلبغا الناصري طمع في السلطنة، ودارت رحى الحرب بينه وبين برقوق، وانكسرت قوات برقوق، وانتصر نائب حلب، ثار العامة ورجموا برقوقاً بالحجارة وانضموا إلى قوات يلبغا، وسرعان ما أعادوا حاجي إلى السلطنة بلقب المنصور، وتولى يلبغا منصب أتابكية العسكر، فنفي مماليك برقوق من القاهرة، وأعلن عن جائزة لمن يأتي ببرقوق الفار حياً أو ميتاً..

أخيراً تم القبض على الفار، فسجنه يلبغا في الكرك واستبد بالسلطة وحجر على السلطان، فوثب الأمير منطاش على منصب الأتابكية وقبض على يلبغا وسجنه بالإسكندرية، ثم تقرب من السلطان حاجي، لكن تطورت الأحداث، وإذا ببرقوق يفلت من حبسه، ويقصد دمشق في جمع من أعوانه، وتتوالى انتصاراته حتى يطيح بمنطاش، ويخلع الخليفة ويتولى السلطنة سنة ١٣٩٠م (٧٩٢هـ).

وقبيل وفاته سنة ١٤٠٠م عهد بولاية عهده لأولاده الثلاثة فرج وعبدالعزيز وإبراهيم.

السلطان فرج بن برقوق:

تولى فرج السلطة وعمره عشر سنوات، كان أكبر أبناء برقوق، ولم يكد يتولى أمور السلطنة حتى اندلعت الثورات ضده؛ ففي دمشق ثار نائبه على الشام، وفي القاهرة تآمر الأمير يشبك لكن قوات فرج قبضت على الاثنين وأخمدت الثورة.

ولما ضاق فرج ذرعاً بثورات الأمراء فرّ من القاهرة، فبايع الأمراء أخاه عبدالعزيز بالسلطنة سنة ١٤٠٥م.

لكن أنصار فرج يمهدون لعودته إلى السلطة، وسرعان ما عاد إليها وأمر باعتقال أخويه، وما لبث أن قُتل الأخوان، فأعلن نائب حلب نفسه سلطاناً على الشام وتلقب بالملك العادل سنة ١٤٠٧م.

وسرعان ما قتل العادل على يد أحد أعوانه بعد شهرين.

غير أن أخطر ما تعرّض له فرج أثناء سلطنته تحالف نائب الشام نوروز ونائب طرابلس شيخ واستبدا بالشام، وزحفا إلى القاهرة سنة ١٤٠٨م، لكن جيوش فرج هزمت الثائرين، وأظهر فرج الحفاوة بنائب طرابلس وعزل نائب

الشام وأضاف الشام إلى شيخ، لكن الأخير صمم على المضي في الثورة، وسرعان ما خلع الثائرون فرج من السلطنة وقتلوه أشنع قتلة سنة ١٤١٢م.

وبعد مناوشات وثورات تولى شيخ السلطنة تحت اسم السلطان المؤيد شيخ المحمودي.

واتسم عهد المؤيد المحمودي بالهدوء إلى أن توفي سنة ١٤٢١م، وهو باني مسجد المؤيد شيخ الشهير بالقاهرة.

لكن اندلعت الثورات بعد وفاته ولم تنقطع، وبخاصة أثناء مرحلة حكم من سموا بالأوصياء، وهم الذين تولوا الوصاية على أولياء العهد في صغرهم، كالأتابكة، وها هو أحمد بن شيخ المحمودي قد خلف أباه على السلطة وعمره عشر سنوات، وتولى الوصاية عليه الأمير ططر أتابك العسكر الذي تزوج بأمه، وما لبث أن خلع السلطان وسجنه واعتلى العرش مكانه إلى أن قتلته زوجته أرملة المحمودي.

خلف محمد أباه ططر على العرش في سن الحادية عشرة، لكن الأمير برسباي خلعه وتولى السلطنة وظل ست عشرة سنة سلطاناً إلى أن توفي فاستولى على الحكم جمقمق أتابك العسكر سنة ١٤٣٨م.

ولم تهدأ الأمور إلا بعد أن استولى قايتباي على السلطة سنة ١٤٦٨م، وامتاز عهده الذي دام تسعاً وعشرين سنة بحسن تدبيره وقوة سياسته.

لكن لم يعهد قايتباي لابنه محمد بولاية العهد حين توفي سنة ١٤٩٦م، ومع ذلك نصب الأمراء محمداً سلطاناً على مصر، غير أن الأمير قانصوه استبد بالسلطنة، ولم يمكث فيها غير ثلاثة أيام بعدها تمت محاصرته في القلعة وتم قتله.

ثم تغيّر أمراء المماليك على السلطان محمد بن قايتباي لاستبداده وتعسفه وانتهى الأمر بقتله.

اجتمع الأمراء من جديد وقرروا تنصيب خال السلطان المقتول المسمى قانصوه علي في تشرين الأول ١٤٩٨م، فأقر قانصوه أزبك وهو من كبار المماليك في منصب الأتابكية، ورقى الأمير طومان باي إلى الوزارة، غير أن طومان باي كان يطمع في السلطنة، وسرعان ما تآمر مع نائب الشام، قوصروه سنة ١٤٩٩م، وحاصر القلعة فاضطر قانصوه إلى الهرب.

وبعد مناوشات عديدة تولى طومان باي الحكم وتلقّب بالمؤيد سنة ١٥٠١م، وصار قوصروه الأتابك وصار قانصوه الغوري «بعد أن عاد إلى مصر» في منصب الدوادار.

وسرعان ما تلقب طومان باي بالعادل بدل المؤيد، لكن خاف خيانة الأتابك قصروه فلجأ إلى الحيلة واستدعاه إلى القلعة وقبض عليه وقتله.

ارتعب الأمراء مما جرى لقصروه على يد العادل طومان باي، ونشطوا إلى التآمر ضد طومان باي، وتزعمهم قانصوه الغوري نفسه، وفي عيد الفطر من السنة نفسها ١٥٠١م اجتمعوا عليه وقتلوه بعد مرور ثلاثة أشهر على سلطنته.

قانصوه الغوري:

ولنسرع للانتهاء من تلك السلسلة الطويلة من التآمر والتي امتاز بها عهد دولة المماليك الجراكسة، ولنركز على الأحداث التي تستحق أن تسجل في التاريخ الحي.

ها هو الغوري قد تولى السلطنة في شهر مارس ١٥٠١م، والحقيقة أنه كان يهاب السلطنة لما حاق بها من شرور وتآمر وخيانة.

لكن لماذا اختار الأمراء أن يولّوا عليهم الغوري بالذات ولم يكن أقدرهم ولا أذكاهم؟

السبب أن ذلك الرجل كان لين العريكة، ورأى من نصبوه سلطاناً أنه يمكنهم أن يزيلوه عن السلطنة في أي وقت يشاؤون!

ومن الطريف أن الغوري حين قبل المنصب وجّه حديثه إلى أنصاره قائلاً:

«أقبل ذلك بشرط أن لا تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم»(*)،

فهل بوسع أحد أن يصدق أن يصل ضعف السلاطين إلى هذا الحد؟

لكنه التاريخ يكتب كلمته ويبين المصائر.

لكن الغوري كان حصيفاً وداهية.

لقد اشتغل أواخر عهده بحرب العثمانيين لدفعهم عن حدود بلاده، لكن أمراء المماليك لم يكونوا على درجة وعيه بذلك الخطر، فراحوا يهونون من شأن العثمانيين غير عابئين بالحرب والقتال، وتكالبوا على جمع المال بشتى السبل، وحين لم يجد الغوري منهم أذناً تصغى ارتحل عن القلعة إلى جزيرة الروضة ليعد حملة تدفع العثمانيين عن البلاد وذلك سنة ١٥١٦ ميلادية.

بيد أن الخيانة استشرت في جسم دولة المماليك كوباء، وهاهم الأمراء من المماليك مثل خاير بك وجانبردي الغزالي، يتسللون إلى حيث سلطان العثمانيين سليم، ويتفقون معه على الانفضاض من حول الغوري وتسلميه البلاد.

(*) راجع شذرات الذهب، ج٨، بدائع الزهور، ج٢.

وما كاد قانصوه الغوري يخرج للقاء عدوه في مرج دابق حتى لقي مصرعه.

وها هو نائبه على السلطنة طومان باي الثاني وقد صار سلطاناً؛ يوجه النداء تلو النداء للأمراء بالتعبئة العامة والخروج للقاء سليم سلطان العثمانيين الذي يتربص بالسلطنة الدوائر، ويبذل قصارى جهده لدفع الخطر عن البلاد، لكن المماليك لم يشاركوه في الهم ولم يتوجسوا من العثمانيين خيفة، وظلت تشغلهم مصالحهم الشخصية.

كان طومان باي رجل الساعة؛ شجاعاً مخلصاً، متديناً، لم تشغله أمور الدنيا عن تلبية نداء الواجب، ووضع الخطط التي كانت كفيلة بتدمير القوة الغازية، لكن المماليك كانوا يسبونه علناً حين اعتزم النزول عن السلطنة.

هيا نستعرض معاً ما سطرته يراع مؤرخ تلك المرحلة عن كثب إنه ابن إياس في كتابه الشهير بدائع الزهور في وقائع الدهور أو ما اشتهر باسم تاريخ ابن إياس.

يذكر ابن إياس أن السلطان الغوري: «كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه، ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله وعلو همته وعزمه في الأمور، وكان كفئاً تاماً للسلطنة، مبجلاً في المواكب، تملأ منه العيون».

ومن إنشاءاته بالقاهرة الجامع والمدرسة، والوكالة والحواصل والربوع والمئذنة التي عمرها بالجامع الأزهر، كما جدّد خان الخليلي.

ويقول عن طومان باي: إنه السابع والأربعون من المماليك وأولادهم بالديار المصرية، وهو الحادي والعشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد، وكان أصله من كتابية الأشرف قايتباي، اشتراه الملك الأشرف قانصوه الغوري وكان يلوذ له بقرابة.

ولما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة، وهي الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوي، فأفيض عليه شعار الملك، وتلقب بالملك الأشرف، مثل قريبه الغوري.

ونصل إلى واقعة الريدانية التي حصلت بين المماليك يقودهم طومان باي، وبين العثمانيين يقودهم سليم، يقول ابن إياس:

وقعت حادثة مهولة وهي أن السلطان نزل إلى الميدان، واجتمع الأمراء والعسكر ولم يشعروا إلا وقد قامت ضجة كبيرة في الرميلة، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى الريدانية، فقال السلطان للعسكر:

«كم قلنا لكم اخرجوا للتجربة ما ترضون تسافرون، فاخرجوا ولاقوا ابن عثمان..».

ويمضي ابن إياس في وصف المعركة الأخيرة ويقول: إن العثمانية تحايلوا وجاؤوا من كل ناحية أفواجاً أفواجاً كأنهم قطع الغمام، ثم انقسموا فرقتين: جاءت الأولى من تحت الجبل الأحمر، والثانية بالريدانية، وهجموا على العسكر هجمة منكرة، وبعد قليل قتل من جند مصر أعداد كثيفة لا يعلمها إلا الله، وقتل كثيرٌ من أمراء المماليك..ولم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انكسر جند مصر، وولوا مدبرين.

لكن طومان باي ثبت بعد الهزيمة يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك، وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى، لكنه خشي أن يقبضوا عليه فاختفى من الميدان.

وفي الثالث من شهر المحرم سنة ٩٢٣هـ، الموافق لسنة ١٥١٧م، ركب سليم شاه في موكب عظيم ودخل القاهرة من باب النصر.

تابع طومان باي مناوشة العثمانيين وهو حر طليق.. ثم ما لبث أن نزل ضيفاً على بعض أصدقائه في البحيرة من أعمال مصر، لكن العربان أرسلوا إلى سليم بخبره، فأرسل جماعة من جنده قبضوا على طومان باي.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٩٢٣هـ، وفي يوم الإثنين من ذلك الشهر أخرج ابن عثمان طومان باي من الحبس، فجعل يسلّم على الناس على طول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة، فلما تحقق أنه سوف يشنق قال لمن حوله:

اقرؤوا لي الفاتحة ثلاث مرات:

ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات، وقرأ الناس معه.

وهكذا انتهى تاريخ المماليك في الدنيا.

obeikandl.com